

وتتضمّن معنى الذهاب بعيداً عن الموطن الأصل، كما تفتح أفق انتظار يرتبط بالتنوع نفسه، أي أنّ القارئ ينتظر وصفاً للبلدان التي زارها صاحب الرحلة (كوصف القاهرة في التعريف). وينتظر القارئ كذلك ذكراً لخصائص البلدان وعاداتها وطقوسها (مثلاً عند ابن خلدون ما يتعلّق بالطّهر وزعيمهم تيمور عندما كان محاصراً لدمشق). الرحلة جولة في الفضاء، في الحاضر، بينما التاريخ جولة في الزمن، في الماضي. الرحلة وصف، والتاريخ سرد. إلا أنّ هذه المقابلة تبقى نسبية، لأنّ الرحلة تتضمّن قسطاً من السرد التاريخي، والتاريخ يتضمّن قسطاً من الخطاب الوصفي.

إنّ قسماً من كتاب ابن خلدون يندرج ضمن أدب الرحلات. هذا ما يبيّنه العنوان، الذي يشير أيضاً إلى قسم آخر، وذلك عبر كلمة «تعريف». هذه الكلمة يمكن أن نجد لها عدّة معانٍ :

- 1 - التعريف يقتضي أنّ ابن خلدون غير معروف، مغمور.
- 2 - التعريف يقتضي أنّ ابن خلدون معروف، ولكن بطريقة مشوهة، فيأتي الكتاب لإبراز التعريف الصحيح.
- 3 - التعريف يقتضي أنّ ابن خلدون يستحق أن يُعرف، بل يجب أن يُعرف. المدلول الأول لا يمكن أن نأخذ به، إذ لا يتصور في الأدب الكلاسيكي أن يتمّ التعريف بشخص مجهول، أن تكتب سيرة شخص مغمور. اليوم تشجع بعض دور النشر أشخاصاً لا يتقنون الكتابة على إملاء ذكرياتهم وتُنشر هذه الذكريات على شكل أوتوبيوغرافيا.⁽⁸⁾ في الماضي لم يكن ممكناً كتابة سيرة ذاتية إلا إذا كان الذي يكتبها أو يملئها معروفاً بإنجازات وبكتب، أي إلا إذا كان مؤلفاً معترفاً بقيمته.

هناك حالة ابن بطوطة. رحلته (والرحلة من الصّعب فصلها عن السّيرة الذاتية) كتبت بالرّغم من أنّه لم يكن مؤلفاً. كيف نفسّر هذا؟ المعروف أنّ ابن

(8) انظر في هذه المسألة لوجون، ص. 229 وما بعدها.